قراءة في كتاب: عبد الرحمن بدوي: الحضور والغياب؛ دراسات نقدية

المؤلفون: علي زيعور ـ حسن حنفي ـ جميل قاسم ـ وحسن قبيسي.

الناشر: دار الأنوار للطباعة والنشر، بيروت

التاريخ: الطبعة الأولى؛ ٢٠٠٤

الصفحات: ٢٢٩ صفحة من القطع الوسط

عرض: هاشمية رسلان

إذا كان للفلسفة العربية المعاصرة أن تسجّل لنفسها حيّزاً في الحضور، فسيكون ذلك مع عبد الرحمن بدوي. فالرجل الذي مضى في رحلة مديدة في عالم الفلسفة الوجودية، سيضيف إلى الفكر الإسلامي من الأسئلة ما يغني مساحة واسعة في منطقة الفراغ.

والكثيرون ممن درسوا الفيلسوف العربي المصري، أو الذين نقدوه من موقع التباين والاختلاف، أو أولئك الذين اتفقوا مع أطروحاته الفلسفية وذهبوا مذهبه، اتفقوا جميعاً على كونه واحداً من أبرز الذين أنجبهم العقل العربي في القرن العشرين. ذلك أن أهمية هذا الفيلسوف والمفكر تكمن في شغفه المفرط بالسؤال، وفي محاولته الدؤوبة في نقل وشرح وتعريب وتأويل الفكر الفلسفي الغربي، ولا سيما ميدانه الألماني. وإذا كان الدكتور بدوي لم يتفرّغ كالفلاسفة، للعمل الفكري والفلسفي المحض، حيث غلب التحقيق الأكاديمي على مجمل أعماله، فذلك لإدراكه أهمية التواصل بين البيئة العربية – الإسلامية الحديثة وفضاء الغرب الفلسفي. وتبعاً لهذا الإدراك، سعى بدوي إلى الإحاطة العلمية والمعرفية الخلاّقة بكل تاريخ الفلسفة الحديثة، وتعمق في مذاهب الفلاسفة المختلفين. وحين يجمع الباحثون على اهتمامه بكل من الفيلسوفين الألمانيَّين الحديثَين هايدغر ونيتشه، فإن ذلك سيكون علامة مميزة في تشكيل منجزة الفلسفي الكبير.

هذا الكتاب الذي بين أيدينا وضعه أربعة من الأكاديميين والمفكرين، هم: علي زيعور، وحسن حنفي، وجميل قاسم، وحسن قبيسي. وفيه محاولة بسط لتجربة بدوي الفلسفية والفكرية من زاوية النقد المعرفي، الابستمولوجي. وقد جاء صدور الكتاب بعد نحو عام على وفاته في فرنسا حيث كان يقيم. الأمر الذي يعكس اهتمام المساهمين ـ وبعضهم تلاميذ أو أصدقاء لبدوي ـ بواحدة من أكثر المحطات الفكرية إثارة للجدل في فضائنا العربي ـ الإسلامي.

تأويلية بدوي

في رؤيته للفيلسوف الغائب/ الحاضر، يبين الباحث في علم النفس/ الفلسفي الدكتور علي زيعور، أن بدوي قصد بوعي جاد إلى صياغة مذهب متميز

داخل الفكر الوجداني الشائع. وسعى إلى أن يتفرّد، وأن يعيد صياغة الحقل العام، بحيث يبرز كشخصية ابتكارية أو صاحب إسهام خلاّق وغير اعتيادي. بل إنه من الهّين – بحسب زيعور – تعقب رغبته تلك، ومساعيه في أن تكون له أفكاره الإبداعية؛ لذلك فهو يعود إلى النبع، أو يظهر لنا كمن يريد تلك العودة وذلك الاستقاء من المصدر الاول(...) إن بدوي في هذه المنظورة، ليس فقط في القول الفلسفي العربي - كما يقول زيعور - بل هو أيضاً سبّاق بالنسبة لكثرة ممن اشتهروا في العالم الغربي على صعيد الوجدانية. فمن هنا، ترنُّ بعض شهرته في الذمة العالمية للفلسفة، وليس فقط بسبب أبحاثه وتحقيقاته في تاريخ الفلسفتين اليونانية، والعربية/ الإسلامية.

تُظهِر أطروحة بدوي قدرته على امتلاك مفاتيحه المعرفية: إنه يتجول في عالم أليف لديه، ويتحرك في الفضاء الفلسفي بلا صعوبة، وبلا مشاعر بالغربة أو الدونية بلا ضير ولا إحباط. كأنه يُقيّم أفكاراً تراثية في بعض الأحياء، فيضطر إلى التقطيع والانصراف الى التخلية، ولكنه يبدو كالسعيد المبتهج إذ هو يوفّق فعلاً في أن يمطّط المعنى واللفظة بعد أن يخرجهما من سياقهما الثقافي التاريخي. وفي جميع الأحوال فإن بدوي في أطروحته ومن بعد وفي كثرة كاثرة من أعماله، يظهر ماهراً كأي عامل تقني أمام آلة تدرب عليها وأتقن إدارتها والمعرفة بأجزائها. وهكذا تطرح محاكمة فلسفة عبد الرحمن بدوي مشكلات حضارية، وحيثيات الصراع الحضاري مع الغرب، والدفاع التقريظي عن الذات أو الاستسلام الانبهاري أمام الآخر، وإعادة النظر في التاريخ والتواصلية والوعي.

في الرؤية النقدية التي قدمها المفكر المصري د. حسن حنفي، سوف نلحظ أن المشروع الفلسفي الكامل لبدوي يتجلى في ثلاثة ميادين للبحث:

أولاً: البحث في التراث العربي القديم، عن طريق تأسيسه و معرفة مكوناته التاريخية.

ثانياً: الاستفادة من تجربة الغرب، والتعريف بتياراته ومؤلّفيه في الفكر والأدب.

ثالثاً: العمل على نهضة مصر، بالإبداع الفلسفي مثل «الزمان الوجودي»، والأدبي في الشعر والقصة واليوميات، وإن غاب التحليل السياسي والرؤيا السياسية والعمل السياسي.

لقد حاول صاحب المشروع النهضوي تأصيل النزعتين الإنسانية والوجودية في التراث العربي الإسلامي، ساعده في ذلك وجوده في لبنان وإعطائه المحاضرات كما فعل سارتر في مجموعة محاضرات «الوجودية فلسفة إنسانية». وكانت محاضراته في «الإنسانية والوجودية في

الفكر العربي» بمثابة بيان للوجودية بصيغتها العربية. حيث قصد منها إحياء بعض العناصر الممتازة والخلقية بالبقاء في تراثنا العربي.

الباحث الاستاذ في الجامعة اللبنانية، د. جميل قاسم، له مع الفيلسوف بدوي رؤية مخصوصة امتزجت فيها علاقة المعلم بالطالب، فقد حضر له دروساً في الفلسفة الوجودية في جامعة باريس الخامسة فبدا أثر بدوي عند قاسم واضحاً. ذلك أن وجودية بدوي ظهرت في تحليل قاسم من خلال مجالها القومي. حيث يدعو في عدد من كتبه ومقالاته إلى وجودية عربية تحث على استذكار كل ما هو شمولي وكليّ ومشاعي، ومسكوني في التراث. ذلك من أجل إعادة بناء الذاتية العربية. يرى قاسم أن وجودية عبد الرحمن بدوي تستمد مقوماتها بشكل رئيس من فلسفة هايدغر الوجودية/ الزمانية. وفي كتاب «الزمان الوجودي» لبدوي نجد العرض الأوفر لمذهبه في الوجود «وجود الإنسان بالنسبة لشيخ الوجودية هو عبارة عن نسيج من الواقع والإمكان. فالوجود نوعان: وجود مطلق ووجود متعّين؛ الوجود المطلق هو وجود عام – وفي تصوره فهو أعم التصورات، وهو بذلك يحمل على كل الموجودات – أما الوجود المتعَّين، فهو وجود معروف الإنية وإن كان غير معروف الماهية. والإنية من مصطلحات الفلاسفة المسلمين، ومعناها «تحقق الوجود العيني من حيث مرتبته الذاتية» وتستعمل في العادة في مقابل الماهية، أي أنها ترادف «الوجود» مقابل الماهية. وبهذا المعنى كان الفيلسوف أبو البركات البغدادي في موسوعته الفلسفية «المعتبرة في الحكمة» يرى أن الزمان يعرف بإنيته وإن لم يُعرف عبر جوهر الزمان وماهيته وكذلك الوجود.

ويقسّم عبد الرحمن بدوي بدوره الوجود المتعَّين إلى ثلاثة أقسام: « وجود الموضوع» و «وجود الذات» و «الوجود بذاته». أما «وجود الموضوع» فيقصد به وجود الموضوعات الخارجة عن الذات العارفة . أي وجود الأشياء في الزمان والمكان، سواء أكانت هذه الأشياء روحية أم مادية، واقعية محسوسة أم مثالية ذهنية. أما «وجود الذات»، فهو الوجود الذي تكون فيه الأنا أو الذاتية في علاقة نسبة مع نفسها، وليس باعتبارها مجرد موضوع أو موضوعاً مجرداً، أما «الوجود بذاته»، فهو وجود الشيء في ذاته، كما يفهمه كانط، وهو وجود قلبي خالص أولاني (noumene) لا يمكن معرفته في الحقيقة، لا كما هو في ذاته، ولا بما هو في ذاته.

الوجود والعدم معرّباً

في مطارحات عن عبد الرحمن بدوي يتحدث الباحث الفلسفي الدكتور حسن

قبيسي عن مقارنة «الوجود والعدم» للفيلسوف الوجودي **جان بول سارتر** بما مضى إليه **بدوي** في «الزمان الوجودي». بل هو يعتبر ترجمة بدوي لكتاب سارتر الشهير إنما هو استعادة عربية في غاية الامتياز لهذه الأطروحة. يقول **قبيسي**: لا أظن أننا بصدد عرض تلك العملية الجدلية التي يقيمها الوجوديون، على اختلاف إقامتهم، بين الكينونة والوجود. ليس من الضروري أن يكون المرء «فيلسوفاً» ليدرك هذه العملية، فيدرك بإدراكها أبسط مقوماتها، أي التمييز بين تصورها تطبيقها. لذا فإننا نعجب من أمر الأستاذ بدوي حين يخلط بينهما. وهو الفيلسوف، إن لم يكن «الفيلسوف الوجودي» إذا صدّقنا التسمية.

ويستدرك قبيسي في معرض انتقاداته **لبدوي**، فيضيف: لكن هذا الخلط ليس أمراً نافلاً. فهو يؤدي إلى هدم ركن أساسي من الأركان التي يقوم عليها كتاب «الوجود والعدم». فالمعلم **سارتر** يميز بالطبع، بين «الموجود(L'existant) و«الكائن» (L'etant)، تمييزه بين «الوجود»-(L'existence) و«الكينونة». (L'etre) ولا مجال هنا – تحت طائلة تحول الكلام إلى بحث فلسفي – لعرض حيثيات هذا التمييز. حسبنا الترجمة، ومردود ذلك على قراءتها **لقبيسي** – إن مقابل حرص المؤلف **(سارتر)** على التمييز بين مفهومي الكينونة والوجود، ومفهومي الكائن والموجود، إطراء لدى المترجم **(بدوي)** على الخلط بينهما. حتى إذا اجتمع في جملة واحدة (existence)و (etre) اجتماعاً صريحاً لا لبس فيه، ووضعنا المترجم أمام الأمر الواقع، أي أمام ضرورة إيجاد لفظتين متميزتين، فرَّ المترجم من الواقع فراره من الأسد، فحذف الجملة حذفاً مبيناً.

لقد انفرد **حسن قبيسي** وهو الأكاديمي المعروف ومترجم عيون الفكر الفلسفي المعاصر، بنقد ترجمة **بدوي لسارتر** «الوجود والعدم». حيث اقتصرت نقديته على الاضطراب الذي حصل للترجمة، مع ما ستساهم فيه من اضطراب وتشويش لدى العقل الثقافي العربي الذي تلقى الكتاب مترجماً قبل نحو قرن مضى.

لكن **قبيسي** لا يبخس **بدوي** أشياءه فيقرر كما قرّر أقرانه من قبل، أن بدوي بقي - مع هنات ترجمة «الوجود والعدم» - حاضراً بقوة في فضاء الفكر الفلسفي العربي الحديث.

كتاب «**عبد الرحمن بدوي - الحضور والغياب**» يدخل في باب التناص الجاد على فكر **عبد الرحمن بدوي**. ذلك بأننا نقرأ ما لم يتيسر لنا أن نعرفه على فيلسوف مصر الحديث.